هجر القرآن

(المقدمة)

من سوء حظ العرب أن القرآن نزل بلسانهم و عليهم في المقام الأول. لأنهم أصبحوا أمام أحد أمرين لا ثالث لهما: اما أن يكونوا مثالا تقتدي به الأمم, و لما أن الله سيجعلهم أحقر الأمم " و ان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

يصبحوا مثالا اذا درسوا القرآن و عملوا به, و يصبحوا ذيول اذا هجروا القرآن و أخذوا بغيره أيا كان اسم هذا الغير. و يوجد طريقة بسيطة لمعرفة هذا الأمر, و هي أن ننظر الى حال الشعوب العربية المؤمنة ظاهرا هل هم قوة أم هم أذلة. فان كانوا أذلة فقد هجروا القرآن. و قد تظهر الذلة بعد حين كما أن السم ليس بالضرورة أن يؤدي مفعوله في لحظات بل يوجد من السموم ما لا يقتل الا بعد شهور أو حتى سنوات.

يوجد من يظن أن هذا الكلام مجرد كلام عاطفة و نابع من سذاجة, و آخر يظن أن الضعف سببه أمور مادية فقط, و ثالث يقول أن أهل الايمان بالقرآن كانوا دائما يحفظون القرآن و يؤمنون به و يجعلونه محور حياتهم حتى هذا اليوم فلا معنى أن نرجع سبب فشل الشعوب العربية الى هجر القرآن لأن هذا يختزل المشكلة بطريقة غير واقعية, و رابع يعتقد أن القوة التي نقصدها هي فتح البلدان و اخضاع الناس الى دين الاسلام. أقول: اني لا أوافق على كل هذه الآراء. و من اطلاعي على كل آراء الناس هؤلاء و غيرهم, و طول النظر في أفكارهم عن الدين و شؤونه, فاني لم أرى من رجع الى الجذر الحقيقي للأمر و استقصى المسألة من عمقها النفسي و الاجتماعي كما ينبغي.

القرآن هو الوحي الذي نتعلم منه لا غير, و نعلم أنه نزل بعلم العالم الأعلى, و كل من يؤمن به حقا يجب أن لا يبحث عن الأسباب الظاهرية التي يمكن نقضها بسهولة, و علينا أن ننظر في الأسباب التي يعلمها الله. و كلامنا في هذا الكتاب هو مع الذين يحبون كتاب الله و يرغبون في حياة قائمة على الله.

و على ذلك نريد أن نعرف كيف يتشكل الفرد, ثم المجتمع. و نعرف ما هو سبب هجر القرآن أو أسبابه و مظاهره. القسم الأول سنحلل فيه أمر النفس و المجتمع بقدر الضرورة هنا, و لكي تكون جوابا على سؤال سبب تخلف العرب المؤمنين. و القسم الثاني سنكشف فيه المظاهر التي عمل الأحزاب على نشرها بين المؤمنين لكي تكون طريقة الى هجر القرآن و لكن بدون أن يظهروا أنهم يريدون أنهم يريدون ذلك. فتعالوا ننظر.

1. كيف تتشكل النفوس؟

النفس قلب و جسم. القلب محل الأفكار الأفكار الباطنية, و الجسم محل الحركات المادية, و من مجموع الأفكار و الحركات تتشكل نفس الانسان و تتغير و تنتج الشعور. و الجسم ميت بنفسه لا يمكن أن يتحرك الا بفكرة على الأقل, فكرة شعورية أو لا شعورية. فالقلب أساس النفس و أهم ما فيها.

و أساس القلب هو تصور الكمال. و بسب تصور الشخص للكمال فان كل مشاعره و أفكاره و أعماله تنتج عن هذا التصور. فتصور الكمال أم مافي القلب و بحسبه يتشكل و بالتالي تتشكل النفس.

الانسان هو الذي يجعل قيمة معينة من الكمال أو لا. و كل الأديان و المذاهب الفكرية المنظمة أو العامية هي في التحليل النهائي قيم محلها تصور الكمال. هذه القيم هي التي يعمل الفرد على أن يحققها في واقعه الباطني أو الجسماني أو الاجتماعي.

و المجتمع ليس أكثر من اجتماع أفراد, اجتماع نفوس. فكما أن مجموع أفكار الفرد كون نفسه, فكذلك مجموع قيم المجتمع تكونه. فالمجتمع كالنفس الواحدة.

الآن, كل مجتمع بحسب قيمه أي الأفكار التي يريد تحقيقها و يعمل بحسبها, و و اذن نريد أن نعرف المصدر الذي يستمد منه المجتمع قيمه, اذ بحسب هذا المصدر ستكون حال المجتمع, و لا يوجد و لا يمكن أن يود مجتمع الا و له مصدر أو مصادر متدرجة يستمد منها قيمه. هذه المصادر كالكتب. قد يكون كتاب الحيوانات و الوحوش. و قد يكون كتاب فلان الفيلسوف. و قد يكون كتاب الهي و ما أشبه. و أكبر برهان عياني على ذلك هو أنك لن تجد مجتمع ستمد قيمه من مصدر الا و ستجد حال الناس بحسب حال هذا المصدر. و الادعاء أن المصدر هو هذا أو هذا ليس بالكلام و انما بالفعل, فقد يزعم شخص أنه يعمل بحسب قيم معينة و هو في الحقيقة يعمل بغيرها, فالعبرة ليست بالزعم و لكن بالعمل.

و أريد أن أذكر بأمر شديد الأهمية. و هو عندما نقول "قيم" لا أقصد القيم المثالية الخيالية التي تسمى الأخلاق و ما أشبه من هذه الأوهام. و لكن أي قيم, بغض النظر عن محتواها. فكل فكرة يسعى الانسان لتحقيقها تعتبر قيمة. و كل فكرة توجه المجتمع هي قيمة.

فاذن كل مجتمع هو بحسب الكتاب الذي يؤمن به. كل فرد يكون بحسب القيم التي يراها لأنها الأحسن, و كل مجتمع يكون بحسب أكثرية النفوس التي فيه, كما أن السكر اذا زاد أصبح الطعام حلو, و الملح اذا غلب كان الطعام مالح حتى لو وجد سكر. فالعبرة بحال الأكثرية.

فالجواب هو هذا: النفوس تتشكل بحسب القيم, و القيم بحسب الكتاب. فاذن النفوس بحسب الكتاب الذي تستمد منه علمها.

2.ما أنواع القيم؟

كل انسان يحب نفسه, و لا يمكن أن يحب غيره بتجرد مطلقا, و الاستثناء الوحيد هو اذا كان يظن أنه بحبه لغيره سيكسب منفعة لنفسه, سواء منفعة قلبية أو جسمية أو اجتماعية, و سواء كانت منفعة حسبها شعوريا أو لا شعوريا. حتى الذي يظن أن الأم تحب ابنائها بتجرد تام ليس على حق, أليس يوجد من الأمهات من يكرهون أبناءهم بل و لا يرغبون في رؤيتهم مطلقا. و يعاب على القيم التي يتخذها بعض الناس كونها ليست مستمدة من جوهر نفس الانسان كما هو و ليس كما يحب الناس أن يتخيلوا أنها كذلك. و بسبب هذه المخالفة للحقيقة النفسية نتجت النفوس المنافقة الشاعرية التي تقول ما لا تفعل. فالقيمة حتى تعتبر قيمة قيمة يجب أن تكون مبنية على الأنانية و العظمة الفردية.

الأنانية هي أن كل انسان يريد منفعة نفسه , و العظمة هي أن كل انسان يريد أن تكون نفسه كبيرة حتى اللانهاية. هذا هو جوهر النفس لا غير كما أن كل جسم فيه معدة و قلب و كبد, وفكذلك الأنانية و العظمة هما جوهر النفس. و لا نحتاج الى مهاترات و فلسفات لكي يعرف كل شخص في نفسه أنه يريد المنفعة و العظمة.

يحرف أهل المكر قيمة الأنانية بأن يروجوا للناس العطاء و الاحسان و ما أشبه و نكران االذات. و يحرفون قيمة العظمة بأن يروجوا للتواضع و التذلل و الاتباع و التقليد و ما أشبه. و بالطبع الذي يحاول أن يقنع الناس بأن يتواضعوا انما يريد أن يتكبر عليهم, و ليس أسهل من اضعاف الخصوم لكي نتقوى عليهم. فالأنانية هي سبب تحريف الأنانية!

العظمة هي القيمة المطلقة لكل نفس حية. و من الناس من يرغب في عظمة الجسم و مظاهره, و من الناس من يرغب في عظمة القلب و أفكاره, و من الناس من يحاول الجمع بين الاثنين و يوفق بينهما. و لا يوجد غير ذلك حصرا. و من هنا تبنى النفوس و المجتمعات, بحسب أي واحد من هذه الطرق الثلاثة يسلكون. و في الحقيقة هم مجرد طريقين, لأن العمل على كبر الجسم سواء لوحده أو بالتوفيق هو طريق واحد لأن التوفيق مستحيل. فاما طريق كبر القلب و اما طريق كبر الجسم.

القرآن يعلم أن الأحسن و الأنفع هو وضع الرغبة في العظمة في القلب, و الاكتفاء بالضرورة المعيشية الكريمة للجسم لأن غير ذلك مستحيل أصلا أن يتحقق. فهو يعلم حياة القلب الكبرى. و القرآن كله في هذا الشأن وحده.

3..تحليل قيمة القرآن

ما معنى أن نجعل رغبتنا في العظمة اللانهائية في الجسم؟ معناه أننا نريد جسمنا أن يكون الأضخم و الأجمل و الأقوى, و أننا نريد أن تكون بيوتنا هي الأكبر و الأفخم و الأغلى, و أننا نريد الناس كلها أن تخضع لنا و تطيع كلامنا و تحبنا, و أننا نريد من النقود و المجوهرات أكثر من أي انسان آخر.

هل من الممكن أصلا تحقيق هذه الرغبة؟ أما جمال الجسم و قوته فعلى فرض تحققها فانها ستكون محققه لفترة وجبزة فقط و بتعب شديد جدا جدا, ما بين العشرين و الأربعين أو الخمسين سنة, ثم الى الشيخوخة ثم الى الموت. و أما البيوت فمهما وجد بيت كبير فيوجد أكبر منه, و لن تستطيع أن يكون لك البيت الأكبر الا في حالات قد لا تتحقق لأكثر من بضعة أشخاص في العالم كله و هؤلاء يكونوا أتعس الناس من كثر الهم الذي سيكون فوقهم ليحفظوا حياتهم و ثرواتهم حتى انهم لن يستمتعوا الا قليلا بفخامة بيوتهم, و أما خضوع كل الناس فكذلك لا يمكن لأحد في كل العالم أن يخضع له كل الناس بل لعل أبناءه أنفسهم لا يخضعون له و لو كان هو الملك. و النقود كذلك ورق يستطيع أي شخص أن يطبع منه كما يشاء و المجوهرات كذلك المنافسة فيها شديدة.

فكما نلاحظ أن السمة الرئيسية لرغبة العظمة الجسمانية تكمن في تحقير الآخرين. فلكي أكون الملك يجب أن أجعل باقي الناس عبيد. و هذا يدل على أن فرحة الملك لا يستمدها من ملكه نفسه و لكن عندما يرى الناس الملك و يشعروا بالتعاسة من مقارنة أنفسهم به فمن هذه التعاسة يستمد الملك فرحته. و كذلك مثلا في جمال الجسم, فان صاحب الجسم الجميل لو وقف أما صاحب جسم جميل مثله فانه لن يشعر بفرحة بل بشيء من الاحباط و المنافسة و الحقد, و لكن اذا وقف بين جماعة من أصحاب الأجسام البشعة فانه يستمد فرحته من بشاعتهم. و كذلك في باقي الرغبات المادية. لكي أكون سعيدا يجب أن يكون الآخرين أشقياء, و لكي أفوز يعني أن يخسر الآخرين.

و لكن بما أننا أنانيين فلماذا نهتم بشقاء الآخرين؟ لأنهم سيكونون مصدر ازعاج دائم لنا. فهل تظنون أن الملك الطاغية يستريح ساعة؟ لو استراح فانه معرض للاطاحة به. و لكي يكون جسمي هو الأضخم و الأجمل و الأقوى هل تعرفون مدى الشقاء المطلوب في التمارين الرياضية و الوجبات الغذائية و الأدوية التي يضطر أن يحافظ عليها باستمرار أمثال هؤلاء؟ و لكي أخضع ارادة الناس لارادتي يعني أن أغضب و أعاقب و أداوم على الملاحظة و بالتالي أجلب على نفسي سخطهم و الذي سيظهر عاجلا أم آجلا. و لكي تكون لي نقود كثيرة يعني أن أهتم طول الوقت بشأنها, استثمارها هل خسرت أن ربحت, حفظها من السرقة و تلاعب المحاسبين, ثم لا تنسى ضرورة مواجهة الأبناء و الأقارب الذي يتمنون موتك اليوم قبل الغد لكي يرثوا ثروتك.

فأصلا لا يمكن لأحد أن يحقق العظمة في الجسم, استحالة مطلقة. و حتى الذي يملك كثيرا أو يتوهم أنه يملك, قد يرجع في آخر اليوم الى بيته و يجد زوجته التي انشغل عنها بالأعمال و السياسة و الاجتماعات و يراها قد نامت عبده أو أحد من أصحابه. و كذلك في كل شيء. و لا تنسى أن كل الناس الذين ستتعاون معهم لتحصل الملك العظيم هم أيضا مثلك أنانيين و يرغبون في العظمة فما ظنك أنهم سيفعلون عندما يرون ثروتك في متناول أيديهم؟ و لا شك أنك لا تستطيع أن تكون في كل مكان و تراقب كل شيء في آن واحد, و قد تقول " أجعل أقربائي و أصحابي المخلصين يعينوني في ادارة أعمالي" أقول : و هل وجدنا على مر التاريخ الى يومنا هذا من يسرق مثل هؤلاء! بل هؤلاء هم الذين سيتجرؤون على السرقة أكثر من غيرهم لأن الهيبة بينك و بينهم أضعف.

و في نهاية المطاف كل الناس تريد الراحة النفسية و هذا هو جوهر رغبتنا في العظمة اللانهائية. و اذا جعلنا رغبتنا في العظمة في الجسم فلا يمكن أن تتحقق الرغبة أصلا, و لا يوجد في العالم كله من أول التاريخ الى يومنا هذا من استطاع حتى أن يقترب من تحقيق ذلك, و الشيء القليل الذي قد تحققه منها سيزول منك بمصيبة أو سرقة أو تكاسل أو مرض أو كارثة اقتصادية أو ثورة اجتماعية أو كارثة طبيعية و غير ذلك. و كذلك لن ننعم بالراحة أبدا التي هي أصلا السبب الذي دفعنا الى طلب العظمة في الجسم. فالذي يملك ريال أو مليار لن يأكل الا على قدر معدته, بل لعل البسيط يستمتع بجسمه أكثر من الثري و هذا معلوم و مشاهد. فمثل الذي يطلب العظمة في الجسم كمثل الذي يريد أن يشبع بعد جوع فذهب و بلع الشوك الحار. لا هو حقق ما يريد و لا هو ارتاح كما كان أصلا يريد. "خسر الدنيا و الآخرة ألا ذلك هو الخسران المبين".

فاذن هذا هو السبب الذي يجعلنا نرفض وضع رغبتنا في العظمة في الجسم, الاستحالة و التناقض مع الدافع و الغاية. و بما أنه لا يوجد الا الجسم و القلب, و بما أنه لكي نفرح يجب أن نضع رغبتنا في العظمة في محل و نحقق فيها, و الا فسنعتبر كالأموات لأن الحي هو الذي يتطور الى الأعلى, فاذن لا يوجد الا أن نضع هذه الرغبة في العظمة في القلب, أي في العلم.

فنحن لا نرفض العظمة الجسمانية لأن القرآن أمرنا بذلك, و لكن نقبل القرآن لأنه الباب الأحسن للوصول الى العظمة القلبية. و هذا معنى قول الله أن القرآن هو " لقوم يعلمون" فالقرآن يفترض وجود العلم في الانسان قبل أن يقرأ القرآن. أي علم؟ هذا العلم الذي شرحناه قبل قليل و الذي سنشرح منه قليلا أيضا الآن.

فماذا نفعل بالجسم؟ نعطيه ما يحتاج لحياة كريمة صحية. و نرفض اللعب الذي يسبب التنافس الوهمي السيء بين الناس و استمداد الفرحة من جلب التعاسة للآخرين كمصاصي الدماء. و اللهو الذي يشغلنا بلا ثمرة لكن فقط قتل الوقت. و التفاخر الذي يسبب الحقد و الغضب و الحروب. و الزينة التي تسبب استعباد الناس و ما لا فائدة واقعية منه. و التكاثر في الأموال و الأولاد الي يجلب الهم و الغم و ينشر الفساد و يسبب الحروب عاجلا أم آجلا.

فها نحن قد رفضنا الجسم, فهل هذا يكفي لقبول العلم؟ نعم و لا. نعم لأنه الحل الوحيد ان أردنا الحياة المليئة بالفرحة. و لا لأن قبول الشيء يجب أن يكون نابعا من نفس هذا الشيء, فما هو الأمر الذي يجعلنا نقدر عظمة القلب و العلم؟

فكرتك عن الشيء هي التي تخلق فيك الفرحة بالشيء. فقد يوجد شيء واحد, و لكن ينظر اليه رجل فيشعر بالفرحة و ينظر اليه رجل آخر فيشعر بالتعاسة. فهل هذا الشيء هو الي يخلق هذا الشعور أم أن فكرة كل رجل عن هذا الشيء هي التي خلقت الشعور؟ لو كان الشيء فاذا لتساوى شعور كلا الرجلين عندما نظرا الى الشيء. فاذن لا شك أنها الفكرة. فحتى أهل الدنيا لا يستمدون فرحتهم القليلة هذه الا من القلب. فالقلب هو السبب في كلتا الحالتين. فبما أنه السيد الأعلى سواء اعترفنا به أم لم نعترف به, فلماذا لا نعترف به و نجله بوعي سيد الحياة؟ أليس هذا هو الأحسن لنا.

في أمور العلم نستطيع أن نكون كلنا عظماء. بعكس الجسم الذي لا يمكن الا أن يكون الشخص عظيما الا بالمقارنة مع شخص تعيس. و لذلك في حياة القلب, أي الحياة التي يسودها العلم, أن يكون الناس عظماء و أن أعمل على أن يكون الناس عظماء يزيد من عظمتي و لا ينقص منها شيء. بل كلما ازداد الناس عظمة ازدادت عظمتي. لأنهم كلما علموا أكثر و علموني فسأصبح أكبر, و كلما كنت أنا السبب في أن يعلم الناس أكثر كلما أصبحت أكبر. و هكذا. و لذلك قال الله يصف هذه الحالة "و نزعنا ما في صدورهم من غل. اخوانا على سرر متقابلين"

اذا حللنا رغبتنا في العظمة سنجد أنها امتداد النفس. لأن هذا يعني أن ارادتي قد دخلت الى نفس الآخر و غلبت ارادته. و النفس هي الارادة في أحد الاعتبارات. فكون ارادتي حركت جسم آخر يعني أن نفسي امتدت الى هذا الجسم. و كذلك تفسير رغبة الملوك في حكم الأرض و رغبة الناس أي يملكوا مساحات أكبر من الأرض. و كذلك تفسير رغبة العلماء في فهم الظواهر. لأن فهم الظاهرة هو حالة من التوحد معها, أي امتداد قوة العقل من نفسي الى ذات الظاهرة المفهومة. فأهل الجسم يجعلون العظمة في امتداد النفس بالارادة, أما أهل القلب فيجعلون امتداد النفس بالفهم. و لذلك فأهل الجسم دائما في حرب و نزاع و حقد و حسد و غضب, لأنهم يتصارعون دوما, اذ لا يمكن أن تنفذ ارادتين مختلفتين على شيء واحد في آن واحد, فيجب على أحدهما أن يغلب, فلكي أصبح عظيما يجب أن أغلب ارادة الآخرين. أما أهل القلب فيغلب عليهم السلام في أمور المعيشة لأنهم لا يريدون من الحياة الجسمانية الا المعيشة الكريمة الصحية اذ ما عدا ذلك كله وهم. و أما الامتداد بالفهم فيمكن لكل الناس بلا أي نزاع.

و نلاحظ أن أهل الدنيا يستمدون فرحتهم من اذلال الناس. أما أهل العلم فيستمدون فرحتهم من فهم ارادة الخالق, و جعل ارادتهم متوافقة مع ارادة الخالق الأعلى. و هذا يعني أن نفوسهم امتدت و اتحدت مع النفس الكبرى للكائن الأعلى. و هذه هي العظمة الحقيقة.

و من هنا تظهر حقيقة نفوس أهل الدنيا, فهم يستمدون حياتهم من كسر ارادة سفلة البشر. و كونهم استطاعوا أن يكسروا ارادتهم دليل على أن هؤلاء البشر المكسورين سفلة و ذواتهم خسيسة. يشبهون الطعام الفاسد الذي يسكن في المزابل. و أهل الأجسام يشبهون الذي يعيش عن طريق الأكل من المزابل.

فاما أن تطلب امتداد نفسك الى نفس سافلة. و اما أن تطلب امتداد نفسك الى النفس العالية. هذا هو الخيار الوحيد الذي يملكه الناس. و كل انسان قد اتخذ القرار شعوريا أو لا شعوريا. و الذي لا يعرف قراره فهو من أهل الجسم و لا مجال لعدم اتخاذ القرار. اذ كل حي يسعى الى شيء. و وجود هذا السعي دليل على أنه قد اتخذ قراره عن أي نوع من الحياتين يريد أن يعيش. "انا هديناه السبيل اما شاكرا و اما كفورا" " و لا يرضى لعباده الكفر".

و من آثار أهل الدنيا وجود القانون الاجباري و الاكراه و الرقابة الفكرية و سلطة الأب أو العائلة و ما أشبه من مظاهر تشملها كلمة " اكراه" فلا يعترف أهل الدنيا بالنفس الانسانية في ذاتها, و لكن يهمهم أو قل يهم قادتهم و زعمائهم ما يمكن أن تستعمل فيه هذه النفوس لكي تنتج لهم ما يريدون.

فرض الارادة من الدنيا, عرض الارادة من الآخرة. الفرض هو أن تجبر, العرض هو أن تعرض ارادتك و رغباتك على الآخرين فمن شاء أن يعمل لك عمل و من لم يشاء فهو حر فليفعل في نفسه ما يشاء. و هذه الكلمة البسيطة العميقة التي يقولها الله " فافعلوا ما شئتم" هي ما لا يستطيع أن يفهمه سفلة البشرية.

و أما العظمة في القرآن فلأنه الجسر بين عقولنا و عقل الخالق. فالكتاب يعبر عن عقل الكاتب. و بما أن العقل الأعظم هو عقل الخالق, فالذي يفهم هذا العلم له أكبر نفس على الاطلاق.

فاذن القيمة القرآنية هي الأعظم و الأحسن و الأنفع بكل المقاييس. هي الحق لأنها الأنفع للناس.

4.كيف هجر الناس القرآن؟

سنذكر هنا الأمور المتعلقة بالقرآن مباشرة. و بعد طول النظر وجدنا أنه يوجد 5 أفكار كبرى أدت الى هجر عامة المؤمنين للقرآن, هذا فيما يتعلق بالقرآن مباشرة, فبالطبع السبب الظاهر الأكبر هو كتب الأحاديث و قصص الشخصيات المعظمة عند الفرق. و لكن حتى فكرة الأحاديث هذه انما انتشرت باستنادها على هذه الأفكار الكبرى الأساسية.

و هذه هي الأفكار : "لا يجوز التكلم في القرآن بغير علم, فالأمر للمختصين" . و "حفظ القرآن فضيلة" . و "التغني بالقرآن" . "يجب دراسة علوم القرآن لكي نفهم القرآن" . " يمكن أن نعرف الله بدون القرآن". فتعالوا ننظر.

1 . "لا يجوز التكلم في القرآن بغير علم, فلا يفتي به و لا يفسره الا رجال الدين"

أول و أهم ركن في دين الله, بل على التحقيق لا يوجد غيره, هو دراسة الكتاب. لأن كل العاملين اما أنهم يعملون بعلم و اما بجهل. فان كان بعلم فهذا يعني أنهم قد درسوا لأنه الدراسة هي التي تنتج العلم و الاقتناع الشخصي. و ان كان بجهل فالله يقول "و لا تقف ما ليس لك به علم" و كذلك في العقائد. أي عقيدة عن غير دراسة نقدية عميقة هي جهل حتى لو كانت الايمان بالله.

" انا سمعنا قرءانا عجبا يهدي الى الرشد فئامنا به و لن نشرك" فحتى لا اله الا الله تأتي بعد دراسة كتاب الله. فاذا أردنا أن نجمع كل الدين في كلمة واحدة فستكون هذه الكلمة هي الدراسة.

في أكثر الديانات و المذاهب الحياتية المنظمة أو العامية يوجد دائما طبقتين: العامة و رجال الدين أو الفكر و اتخاذ القرارات. العامة ليس لهم الا أن يسمعوا للتعاليم التي ينشرها رجال الدين, و غالبا ان لم يكن دائما لا يعطونهم الا الظواهر و الفرائض. فكما نلاحظ عند الأحزاب يوجد نفس الأمر بلا استثناء: هؤلاء عندهم الفقهاء و هؤلاء عندهم الأئمة و المراجع. فالسؤال هو هذا : هل يمكن أن يكون من المؤمنين بالقرآن رجل عامي؟

يقول الكتاب " شهد الله أنه لا اله الا هو و الملائكة و أولو العلم" فكل من يشهد بالوحدانية الالهية و العدل لا يمكن أن يكون الا أحد ثلاثة: الله. أو الملائكة. أو أولو العلم. و كل من لا يشهد بالوحدانية مشرك. و على ذلك فلا يمكن أن يكون من المؤمنين بالقرآن شخص يعتبر عامي. و لكن من أولي العلم.

و بما أن ركن الدين الوحيد هو دراسة الكتاب, فكيف يمكن لدارس عقل الله أن يكون عامي كالأنعام؟ و كيف يمكن للمتعمق في علم الله أن يكون تابعا لبشر هكذا بالتسليم المطلق له؟ و قد عرفنا أن الذي لا يدرس القرآن لا يمكن أن يكون من المؤمنين به, مثله كمثل الذي يشهد أن العسل حلو و هو لم يتذوق العسل أصلا.

و يقول الله " أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام" فالعامة هم الذي لا يسمعون كلام الله و لا يعقلونه. فهل يمكن أن يكون المؤمن بدين الله لا يسمع كلام الله و لا يعقله؟

فاذن العامة لا يمكن الا أن يكونوا من المشركين.

ثم من سيعين رجل الدين المسموع الكلمة؟ هل هو رجل دين مثله أو عامي أو الله؟ لا يمكن أن يعينه مثله لأن السؤال سيصبح من عين هذا الأول. و لا يمكن للعامي أن يعين من هو أعلى منه, أليس يفترض أنهم جلة في أمور الدين. و لا الله لأن الله يريد أن يصبح كل الناس علماء بأمره مباشرة منه, و هل أنزل الكتاب الا لهذا.

فوجود طبقة رجل دين و طبقة عامي لا يمكن أن تكون من أو في دين الله. و رجل الدين المحتكر لا يمكن أن يوجد الا في صورتين: وتد لفرعون أو سارق. أي اما لاخضاع الناس لحكم طاغية, أو لنهب أموال الناس. و قد حذرنا الله و قال " اتبعوا من لا يسألكم أجرا و هم مهتدون" و لكن صدق القائل فيهم "صم بكم عمي فهم لا يعقلون" .

و هنا أمر يخص كل الناس. و هو أن سبب كون عامة الناس من الجهلة هو في الأصل من خلق الطغاة و رجال الفكر. و ذلك لأن المعيشة قبل المعرفة, فتعمل الحكومات على تعسير سبل كسب المعيشة على الناس فيصبح الناس و لا هم لهم الا لقمة العيش و اخواتها. و يأتي رجال الدين "بعلومهم" و يعقدون المسائل بطريقة تافهة, و يخترعون آلاف المصطلحات التي أكثرها لا فائدة فيه اطلاقا حتى باعتراف الكثير من الذين اخترعوها أنفسهم. فما هي النتيجة الطبيعية لذلك؟ بعد الناس عن طلب المعرفة, معرفة الله و أمره. فالفكر لا يعمل بقوة الا عندما يرتاح الجسم, و هذا ما يعمل على منعه الطغاة. و القلب لا يحب ما لا فائدة منه و لا واقع فيه, و هذا ما يعمل على خلقه الكهنة و المجانين و الشعراء و السحرة. و العجيب هو أن يأتي الطغاة بعد ذلك و قولون للناس "بما أنكم جهلة فيجب أن تطيعونا طاعة عمياء" و يأتي رجال الافك و الكذب و يقولوا للأنعام " بما أنكم غير مختصين "بالعلوم" الدينية فيجب أن تبقوا الأمر في يد المختص, فهل اذا مرض أحدكم يذهب الى غير طبيب مختص؟ فكذلك في الدين يجب أن تعتمدوا على المختصين".

فنلاحظ أنهم خلقوا المشكلة, ثم اتخذوا هذه المشكلة ذريعة لجعل أنفسهم الحل الوحيد و الخلاص الأكبر للناس منها. تهيئة الجو للدراسة هو عمل الحكومة الوحيد, العمل على نشر المعرفة هو عمل رجال الدين الوحيد هذا لو وجدوا أصلا, أكتشاف المعرفة هو عمل كل الناس. أي اختلال في واحدة من هذه القواعد يعني الطغيان و التمرد على الله و كلنا نعلم ماذا يحدث عندما يخالف انسان قاعدة من الله كمثل الذي يقفز من أعلى البناية متحديا حكم الجاذبية, سيقع و يتكسر. و لو عمل الناس بهم جميعا فهذه حقا هي الأرض المقدسة التي يريدنا الله أن ندخلها.

ثم ما معنى أن لا يجوز لأحد أن يتكلم في القرآن بغير علم؟ انما نتكلم بالقرآن لنتعلم منه. فكأنهم يقولون "يجب أن تكون عالما بالقرآن قبل أن تتعلم القرآن"! ألا تعقلون!

تدارس القرآن يعني أن يتكلم الناس مع بعضهم البعض في شؤون القرآن و العلم الذي فيه. هذا يقول فكرة و هذا يقول أخرى, ثم تأتي آية و ترد على الأول, فيترك فكرته و ينتقل الى أخرى, و هكذا حتى يصل الى علم يقين في الأمر الذي يتباحث فيه هو و اخوانه. و لكن عندما يكون التكلم في القرآن غير جائز فهذا يعني بطريقة غير مباشرة عدم جواز دراسة القرآن. و هذا هدم للدين, و قد نجح عملهم فعلا. و ها هي شعوب الاسلام تعلق القرآن في بيوتها و كأنه المسيح المصلوب المقتول بالنسبة لهم . و لكن يقول الله " و ما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم" .

انما تعرف الجماعة الصادقة اذا كان أكثر كلامها في الكتاب المتعالي. فعندما يمنع رجال الدين ذلك, فلماذا يتعجبون و يتذمرون من خوض الناس في السفاهات و الشهوات و المباريات و الدنيا بصورة عامة؟ لماذا تكرهون ما عملته أيديكم؟ أنتم أدخلتم في قلوبهم الخوف من التكلم في القرآن و الخوف منه, حسنا, لقد خافوا منه! و تركوه كله لكم! و أنتم هجرتموه لكتب شيوخكم, فأصبح القرآن كيونس في بطن الحوت. و لكن يونس قد خرج اليوم.

و اذا نظرتم الى كتب التفسير " العلمية" أي التي ألفها من يفترض أنهم أهل الاختصاص فستجدون و للأسف الشديد شيء يخزي و يشوي الوجوه. اما روايات تاريخية و قصص من عندهم, و اما تأويلات تجعل القرآن كله في فلان و فلانة من الناس, و اما آيات ملغية أو "منسوخة" بحسب التعبير اللطيف, و كأن القرآن لا علاقة له بالناس اليوم الا من بعيد أو ليس لهم أصلا, و كأن الله قد أنزل القرآن و اعتزل. ثم يتعجبون من بعد الناس عن القرآن و قريبا من الدين كله, و لماذا لا يبتعدون و لا علاقة لهم به؟ هو ليس لهم, و لا يخاطبهم, و كل معانيه نزلت في الصحابة و أهل البيت قدس الله أسرارهم و لعن أعداءهم, حسنا, فلماذا تريدون الناس أن تحب القرآن و تتعلمه؟ ألا تعلمون أن العظمة من جوهر النفس, و الشعور بالتبعية ينفر النفس. مرة أخرى يطعمون الناس السم ثم يبكون عليهم عندما يقتلهم.

تسعة أعشار هذه التفاسير لا تسمن و لا تغني من جوع, و لعل الشيء الوحيد الذي قد ينفع فيها هو المعاني اللغوية للكلمات. و ما عدا ذلك فخير مكان له هو حيث قال الله عن البنيان الذي أسس على شفا جرف هار.

يظن الناس أن تفسير القرآن قد تم, أو على الأقل جزء كبير منه, خاصة الجزء الذي يسمونه "الثوابت" , اني لم أرى أهون من هذه "الثوابت" و لعل هذا هو السبب الذي جعلهم يسموها كذلك. و لكن كل من يدرس الكتاب بروح الله يعلم أن القرآن لم يعرف منه شيء بعد. نسبة ما عرف من القرآن حتى الآن كنسبة علم أبو لهب لعلم جبريل. فليطمئن الذين يرغبون في علم الله أن كنوز القرآن ما زالت فيه. فليعملوا على استخراجها و لا يلتفتوا الى أوهام بعض من سيعلموا قريبا أين مستقرهم, و اجعلوا الأرض تشرق بنور ربها.

2. "من الخير أن نجتهد لأن نحفظ القرآن عن ظهر قلب "

يقول الكتاب "رسولا من الله يتلو صحفا مطهرة" فالرسول يتلو صحفا و ليس من ذاكرته. و لا يوجد في كتاب الله كله آية واحدة تقول "احفظوا القرآن عن ظهر قلب" لا ظاهرا و لا باطنا. ان القرآن ليس كالشعر يحفظ بالغيب, و لكن طريقة حفظه هي الكتابة , صحفا, "و كتاب مسطور في رق منشور" . فأي فائدة في نقل كلام من كتاب موجود الى ذاكرة الانسان؟ المهم هو الفهم. و ما الحفظ المزعوم الا وسيلة للتهرب من الفهم و بالتالي العمل.

هذا أمر الله و لم يعره الناس اهتماما. فهم أصحاب أحاديث, و العجيب الذي يجعل الغضب يشتعل في الصدر هو أني لم أسمع يوما أن حديثا عن النبي أمر الناس بالحفظ عن ظهر قلب!! لم نسمع الا تعلم القرآن و تدراسه و تلاوته حق تلاوته. فلا يكفي أنهم تركوا أمر الله فحتى أحاديثهم تركوها. فما العمل؟

دعونا نسلم جدلا بأن حفظ القرآن كان ضرورة في الماضي, دعونا نسلم بهذه الفرضية الواهية عند التحقيق, و انما أسلم بها لأن هذه هي حجة أصحاب مذهب الحفظ. الآن , هل توجد ضرورة لهذا الحفظ اليوم؟ أليس اذا زالت العلة زال المعلول؟ هل يمكن أن تضيع آية أو أن يأتي عبد الله بن سبأ اليهودي الخبيث و يحرف آية من القرآن و ما أشبه؟ يوجد مليارات من المصاحف في كل بلاد الأرض. لماذا تحفظون اذا؟ و الاسلام أكثر دين في انتشار فالقرآن يتجه الى البيوت أكثر و أكثر, فهل توجد خشية الضياع اذا؟

ان الله يشبه الذي يحفظ و لا يفهم بالحمار الذي يحمل أسفارا, فلماذا يعرض العاقل نفسه لهذا المثل؟ الذي يدرس سيحفظه الله غصبا عنه. فكل دارس حافظ و ليس كل حافظ دارس. فيجب أن تقلب كل معاهد تحفيظ القرآن الى مدارس لتعلم القرآن, و عند ذلك فقط سيكون الناس على صراط الله.

لو استبدل المؤمن كل ساعة يقضيها في الحفظ بساعة دراسة لتغير وجه العالم في ثلاثة أعوام أو أقل. ان الله خلق الببغاء ليكرر ما يسمع, و خلق الحمير لتحمل ما لا تفهم, و لا أظن أن الله أنزل الكتاب لكي يكون المؤمن هذا أو ذاك. الله أنزل ليصبح الناس أرقى و أعلم.

ان في القرآن الملايين من الكنوز لم تستخرج بعد. لماذا اضاعة الوقت في الحفظ و هو محفوظ؟ لماذا اضاعة الوقت في أمر لم يأمر به الله و ترك ما أمر به؟ فماذا تظنون أن الله سيقول عندما ينظر الى مجتمع فيرى عشرات الآلاف من معاهد و حلقات تحفيظ القرآن و لا يجد و لا مدرسة لتعلم القرآن الحقيقي أو مدرسة أو مدرستين؟ عشرة آلاف مدرسة لأمر لم يأمر به الله و لا مدرسة لأمر هو ركن الدين الوحيد! الى متى سنظل على هذه الحال, ألا يفهم الناس بعد!

لا يتوهم أحد أن الله يرضى عنه عندما يحفظ بالتكرار كالحمار. و لا يتوهم أحد أن التبرع لحلقات التحفيظ و ما أشبه هو عمل خيري, بل كلها للصد عن سبيل الله. فان أردتم الخير فامنعوا من اليوم كل هذه البيوت التي أقيمت لمنع انتشار علم الله. و أخبروا الناس أن الحفظ دجل و كذب . و أن الدراسة هي الحق العالي. عندها لا أقول افتتحوا عشرة آلاف مدرة بل مليون و انظروا ماذا سيحصل للعالم, اذا لم تروا الله أمامكم فاغلقوا كل هذه المدارس.

3. "التغني بالقرآن"

ان الله لا يخلق الا لحكمة, و كونه خلق لنا الصوت الجميل يعني أنه علينا استعماله في أمر ما. و بما أن كتاب الله هو الكمال, و من نفس طريقة كلماته نستطيع أن نستنبط أنه من الحسن التغني به. و لكن هذا التغني لا تدبر فيه, فهو مخالف للأصل الذي هو الدراسة. فكل ما يفعله هو اثارة مشاعر كامنة في الشخص بناء على أفكار مسبقة عنده, و جعل الذي يتلو القرآن كأنه شاعر. و هنا صلب المشكلة.

بعد أن ظهر الأحزاب عامة, و أغلقوا عقولهم بمقولاتهم و عقائدهم المختلفة, أصبح أكثر الناس لا يعرفون الا لغة المشاعر و العواطف. و لكي يرضوهم شكلوا القرآن و جعلوا تلاوته على نفس قوانين الغناء و تلاوة الأشعار, و العجيب أنه لم يتساءل أحد عن المصدر الذي خلق ما يسمونه "علم التجويد", أخبروا الناس عن مصدره! انه عين قوانين الغناء. يظن العوام أنه "علم اسلامي مبتكر" نعم هو مبتكر بقدر ما فكرة الاسناد و الوحي الشفهي الآخر المأخوذة عن اليهود مبتكرة!

و لذلك قد ترى الذي يسمع القرآن يبكي فاذا سألته لماذا هل فهمت ما تقول الآية, يقول في الغالب لا. و حتى لو عرف شيئا فلا يؤثر في حياته لأكثر من بضع دقائق و حتى يغادر المعبد.

و تبع ذلك انتشار الأغاني الصوفي و أشعارهم و طغت على القرآن, و الحق يقال انها جميلة حقا, اذ ما الفرق؟ كلاهما غناء يراد به وجه الله. و الحق أن التغني بأشعار الصوفي و ألحانهم قد يعتبر أجمل من التغني بالقرآن. اذ الصوفية يتغنوا بالعشق أما القرآن فللعلم و الهيبة و الانذار. و لذلك في الواقع يفضل بعض الناس الأشعار على القرآن. و نتج عن ذلك شعب مسلمة بلا عقول و لكن بمشاعر قد تسبح في الجبروت الى يوم الدين! و بعد الجهل حدث و لا حرج.

الذي يدرس القرآن هو وحده الذي يجوز له أن يتغنى به هذا لو استطاع أصلا, لأن الذي يتعود على رؤية جمال روح الكتاب سيكون كالنسوة عندما وجدوا يوسف أمامه, سكون محض و تأمل عميق. و كلما استغرق العارف في الدراسة كلما سكن جسمه عن الحركة. ففي نهاية التحليل التغني بالقرآن ضد القرآن. و أصحاب الغناء هم و الشعراء في خندق واحد. و ما المجانين عنهم ببعيد.

4. "يجب دراسة علوم القرآن لكي تفهم القرآن"

دعونا ننقد هذه الفكرة بحسن ظن في نوايا الذين يفرضون أمثال هذه الأفكار. يقصد في المقام الأول بعلوم القرآن علمي "الناسخ و المنسوخ" و "أسباب النزول" و هما أهم علوم القرآن, فاذا ظهر أنهم في قوة و رسوخ فلننظر في غيرهما, و ان ظهر أنهما في ضعف فلا حاجة للاطالة في الأضعف.

. القاعدة التي يقوم عليها علم الناسخ و المنسوخ هو وجود تناقض في الكتاب العزيز. أي يوجد آية تقول "افعل" و آية أخرى تقول "لاتفعل" فماذا نفعل؟ هذا التناقض جعل العلماء يبتكرون حلا جيدا هو أن يقولوا أن الآية الثانية "نسخت" الأولى, أي ألغت أثرها و حكمها الشرعي. و بذلك يزول التناقض من كتاب الله.

و يزيد البيان على أن "وجود التناقض" هو قاعدة علم الناسخ و المنسوخ أن نقول: لو لم يكن يوجد تناقض بين آيتين فهل يمكن أصلا تصور وجود آية تنسخ آية؟

فاذن نحن على يقين تام أن قاعدة هذا علم الناسخ "وجود تناقض في كتاب الله" و معلوم أنه لو سقطت القاعدة سقط البناء كله, و لو ثبتت ثبت بمجمله.

الآن هل يوجد تناقض في الكتاب العزيز؟ يقول الله نفسه "أفلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" فالله تعالى أعطانا معيارا نعرف به هل هذا الكتاب كتابه أم لا, و هو وجود "اختلافا" فيه. و من أبرز معاني الاختلاف هو التناقض الذي يستحيل الغاء أحد طرفيه. و علماء الفرق يعلمون ذلك جيدا.

فكون العلماء الكرام يقولون و بشدة أن في القرآن ناسخ و منسوخ فهذا يعني أن فيه تناقض, و لكن هم اخترعوا فكرة النسخ, أما الله فقد أعطانا الحل الأمثل و هو أن نلغي الكتاب كله من حسباننا.

الله يقول أن وجود تناقض يعني أن هذا ليس كتابي. هم يقولون أن وجود تناقض يعني ابعثوا الناسخ و المنسوخ. أأنتم أعلم أم الله؟

فالذي يؤمن بهذا القرآن لا يمكن أن يعتقد مبدئيا بوجود تناقض فيه. و هذا مبدأ مسلم به عند كل مؤمن. فلا يستقيم أبدا أن يعتقد الناس بهذا العلم.

. أما أسباب النزول فقاعدتها هي عدم تناسق آيات السورة الواحدة و الجهل بمعاني الآيات.

أما عدم التناسق فمردود عند العلماء, و أما الجهل بالمعاني فلا يمكن أبدا أن تبني علما على جهل. و لو كان أسباب النزول شرطا لفهم القرآن فماذا تفعلون بباقي القرآن الذي لا يوجد عندكم أسباب نزول له؟ و معلوم أن تسعة أعشار القرآن لا أسباب نزول له عندكم. و القرآن كتاب الله لا نحتاج الى غيره ليخبرنا بقصص الله أعلم بها. ثم وجود "سبب" لنزول الآيات يعني أن القرآن من صنع البشر, لأن البشر ترى الحادثة ثم "ينزل" عليها الحل بعد التفكير فيه. و وجود "سبب" للأحكام يجعل تغيير الحكم جائز بتغيير السبب و هذا هو ما يدفع كل فاجر اليوم أن يدعو الى هجر القرآن بحجة أسباب النزول هذه.

ان كانت هذه هي أنواع "العلوم" التي يؤمن بها المسلمون فكيف يتعجب الناس من تخلفهم؟ حقا يجب أن لا تعجب من تخلف المسلمين و لكن من تعجب الذين يتعجبون من تخلفهم.

كل ما يفعلونه هو خلق أكبر عدد من الأفكار حول القرآن و فيه حتى يبتعد الناس عنه. لا يكفيهم القرآن لشيء, لا الصلاة التي هي عماد الدين موجود في القرآن, لا قصة نزول الوحي موجودة في القرآن, لا أحكام الاسلام موجودة في القرآن, لا تفصيلات الانسان موجودة في القرآن. أتسمحون لي بسؤال يا أهل الايمان: "ماذا أنزل ربكم؟" ان

كانت الأصول و الفرع ليست مفصلة في القرآن, فما هو هذا الكتاب الذي بين أيديكم اذا ؟ أتعلمون ما هو جوابكم؟ هو كما قال الله في اخوانكم " أساطير الأولين".

5. "يمكن معرفة الله بدون القرآن "

يقول الكتاب أن نقول " ان ولي الله الذي نزل الكتاب و هو يتولى الصالحين" فالله و الكتاب واحد. لا يمكن أن نعرف الله الا عن طرق كتابه. و كل من يدعي غير ذلك هو من الكهنة. لأنه يتكهن نوايا الله بدون علم.

فبعد أن أنعم الله علينا نحن العرب بالكتاب جاء الجهلة ليقولوا لنا أنه يمكن أن نعرف الله بدون كتابه.

الله و كتابه واحد.

(خاتمة)

ان الله رسم لنا عالما جديدا في كتابه, العالم الذي يريد منا أن نخلقه طوعا بالفهم, قبل أن نكره على خلقه بالألم. و قبل أن يستطيع الناس خلق هذا العالم الجديد يجب أن يخلقوه في أنفسهم, و هذا لن يكون الا بدراسة الكتاب الدائمة.

و حزب الشيطان يريد أن يهجر الناس القرآن أي أن لا يدرسوه. و حزب الله هم الذين لا يريدون الا أمر الله الراقي.

فاذن الأمر بين أيديكم " و ان جندنا لهم الغالبون".